وحى الرسالة

من واجب (الرسالة) أن تنشر ما يتفضل به عليها الأدباء الزملاء والأصدقاء من صادق النقد وجيل الرأى فى كتاب « وحى الرسالة » تسجيلا للفضل منهم والشكر منا

قال الأستاذ مصطفى الصباحى فى جريدة (الدستور) :

كتاب أخرجه للناس الأستاذ أحمد حسن الزيات ، وهو جملة من مقالاته التى كان يصدر بها مجلته (الرسالة) كل أسبوع جمعها بين دفتى هذا الكتاب ؛ فكان كأنما انتقى من روضة مونقة الربيع أزهاراً ذات أرج خاص فى باقة واحدة عم رغبة الناس فى تنسم عبيرها، فيسر عليهم سبيل اقتنائها وتشممها والإفادة بما يسترو حون له من عبقها دون كبير سعى أو عظيم جهد

وللأستاذ الزيات أسلوب يتميز به على كثير من كتاب العصر، وسياقة لن تجدها لكاتب من أهل العصر، وتفتقدها من لدن ازدهرت اللغة وعمت آدابها فى العصر العباسى حتى الآن، فلا تجد إلا نفحات مبعثرة فى تاريخ أدبها لا صلة بينها وبين بعضها، فذلك كاتب وقعت له عبارة جزلة ، وهذا خطيب اتفق له معنى فخل ، وغير هذين جمعت له بعض ألوان من فنون العبارة أو بلاغة المعانى

ولكن قلما وقعت على كاتب وفق فى الغايتين فامتلك ناصية العبارة وبرز فى خلق المعانى

فأنت إذن حين تقرأ للزيات إنما تجتمع لك طلاوة العبارة وجمال المعانى ، وتلك هى الغاية التى تنتهى عندها آداب الكتاب وتقف دونها ملكات المبرزين من أرباب الأقلام

معنى بيت فى الحماسة

فى صفحة (٨١ و ٨٢) من الجزء الثانى من كتاب ديوان الحماسة (الطبعة الثالثة) الأبيات الآتية وهى من شعر لعبد الله ابن الدمينة الخثعمى :

ولما لحقنا بالحمول ودونها ... خميص الحشا ثوى القميص عوانقه
قليلُ قَذى العينين يُعلم أنه ... هو الموت إن لم تُنْصَرَ عنّا بوائقُه
عرَضْنا فسلّمنا فسلّم كارهاً ... علينا وتبريحٌ من الغيظ خانقُه

وقد جاء فى شرحها : « ومعنى الأبيات الثلاثة ولما لحقنا بالهوادج التى فيها الحبيبة وخلفها قيم خفيف اللحم لا يقع القميص من عاتقه على لين وطىء لأن عظامه غير مكسوة باللحم وذلك القيم حاد النظر ليس بعينيه قذًى شديد الغيرة على أهله فنحن من شدة صولته نعلم أنه الموت إن لم تهلكنا دواهيه دونا منه الخ »

وإنى أرى أن الشارح (العلامة التبريزى أو غيره) يشرح جملة « يعلم أنه هو الموت إن لم تُنصَرَ عنّا بوائقه » بأنه الموت إن لم تهلكنا دواهيه فهو يقابل (تُنصرعنّا) بكلمة (تُهلكنا) وهذا غير صحيح لأن (تصرعنا) بضم التاء لا يمكن أن يكون معناها تهلكنا وإذا فرضنا أنها (تَصرَ عنّا) بفتح التاء فمعنى الشعر لا يستقيم إذ كيف يكون هو الموت إن لم تهلكهم دواهيه! ولم تكن جملة « إن لم تهلكنا دواهيه » مسبوقة بواو الحال فنفهم أنها جملة حالية!

فالحقيقة أن (تُنصرَ عنّا) كلمتان (تُنصرَ) و (عَنّا) و تُنصرَ فعل مبنى للمجهول مجزوم بحذف حرف العلة من صرى أى حبس أو منع. وهنا يستقيم المعنى ونفهم أن الشاعر إنما قصد تشبيه ذلك القيم بالموت إن لم تتلطف بهم المقادير وتحبس أو تمنع عنهم دواهيه . (الخرطوم بحرى) ا . م . س

(الرسالة) : أصاب الكاتب وأخطأ الشارح الذى نقل عنه ، وهو غير التبريزى من غير شك ؛ فإن التبريزى يقول فى شرحه: « يصفه بحدة النظر، وأنه ليس بعينه غمص فهو أحدُّ لنظره ؛ وإنما يريد مراعاته أهله لشدة الغيرة ، فنحن نخاف من صولته إن لم تُنصرَ عنا ، ويروى إن لم تلْقَ عنا »

ورواها صاحب الأمالى ج ١ ص١٥٦ وفيها « إن لم تُلْقَ » وذكر البكرى فى شرح الأمالى رواية أبى تمام فى الحماسة ثم قال وروى : « وإن لم تُسرَ عنا بالسين والصاد »

وقوله « تصر عنا » ، من قولهم « صَرَى الشىء صرْياً قطعه ودفعه ، وصرى الله عنك شر فلان أى دفعه يقول ذو الرمة

فودّعنَ مُشْتاقاً أصبنَ فؤاده ... هَواهن إن لم يَصرِه الله قاتله

وروايتهم « تسر عنا » من قولهم سروت الشىء إذا نزعته وكشفت عنه ومنه قولهم سُرِّىَ عنه تجلى همه وانكشف

وفى زماننا هذا قل أن يعنى الكاتب والقارئ إلا بما وراء اللفظ ، فإذا برز إنسان فى إيراد المعانى الجليلة واتفقت له سلسلة من الآراء والأفكار القويمة تجاوز النقاد من أهل العصر عن ركاكة عبارته وفساد سياقته

ولقد كنت أعجب للتيار الذى نساق إليه هذه الأيام من إهمال الجانب الأدبى فى التحرير ، وكنت أرجو أن تنقشع تلك الغمة التى دعيت « تجديداً » وهى ليست من التجديد فى شىء ... إذ قنع المنشئون بمحاكاة أهل الغرب فى أخيلتهم والأخذ عنهم فى إيراد الأحاديث وتقليدهم فى الأوصاف ونحوها من فنون الكتابة دون إعارة أصول الأدب العربى شيئاً من عنايتهم ، حتى ذهب كبير من أعلام دولة القلم يتحدث إلى فى مجلس خاص فيقول إن اللفظ للمعنى كالثوب على الرجل ، فهو إن كان رجلاً فاضلاً لم ينتقص خلق ثوبه من فضله ، وإن الرجل مهما يكن لباسه شريفاً ولكن نفسه فقيرة من الفضل وقلبه خلى من العلم لا ينفعه اللباس فى شىء !

وعلى الرغم مما فى ظاهر هذا القول من تعبير حق عن جوهر الموضوع فإن اللفظ الشريف يزيد المعنى الجليل شرفاً ، كما يسبغ الثوب الكريم على الرجل العظيم مهابة ويزيده توقيراً ويكون أدعى إلى احترامه لدى غشيانه المجالس

فإن أول ما يطالعك من الرجل لباسه، وأول ما يفاجئك من المعنى ظاهر لفظه . ورب معان كريمة ضاعت لسوء صياغتها وركاكة أسلوبها . ورب مقالة خلدتها الرواية لطلاوة السياق وبلاغة الإيراد ورقة الحاشية

والزيات كاتب جمعت له إلى رصانة الأسلوب ووضوح السياق حلاوة المعنى ، وبلاغة العبارة . ولعله فى ذلك متميز بالجمال فى الناحيتين. ذلك الجمال الذى تلمس منه ميلاً إليه فى شتى صوره وتفصيلاً له فى جميع معانيه . فأنت أول ما تطالع من كتابه الجديد مقالة « فى الجمال » ، فهو يحدثك فى هذه المقالة عن الجمال حديث الشاعر الملهم، والكاتب الصادق الحس، ورجل الفن الذى استغرق الفن مشاعره واستجاب لحاسته الفنية الدقيقة .

فهو بهذه الصفات كلها يقول :

« الطبيعة والفن إنما يحدثان أثرهما فى النفس ، إما بالفكرة وإما بالعاطفة وإما بالشعور الصادر عن آلات الحس ، ومن ذلك تنوع الجمال ، فكان عقلياً وأدبياً ومادياً » .

هذا مذهب يذهب إليه الرجل وهو يتحدث لا بعقله وحده وإنما بحسه أيضاً ، ذلك الحس الذى يشعر بالجمال ويقدره ، يشعر به جمالاً عقلياً وأدبياً ومادياً لا يخطئ فى الشعور به ولا يغفله فى أية صورة ظهر أو خفى ... وآية ذلك أنه يقول بفعل ذلك الإحساس وحده : « وجمال المرأة يحتفظ بدوامه وسحره ما دامت له روح العاطفة تشع فى نظراتها ، وتنسم فى بسماتها، وتشيع فى قسماتها، وتنشر أضواءها السحرية على أعصاب الرجل — وهو بطبعه ولوع — فيتمتع بنعمة اختياره ولذة إيثاره ، ويجد فى الضعف الذى يستسلم ويستكين ، الحب الذى يطول ويحكم . .

ثم إن الأستاذ الزيات يتحدث إليك بعد هذه المقالة عن « الربيع » فإذا هو يقول « فى الربيع يشتد الشعور بالجمال والحاجة إلى التجمل ، فترى الشباب بجنسيه يستعير ألوان الرياض وعبير الخمائل ومرح الطيور ، ويحتشد فى دور الملاهى وصدور الشوارع ، فيخلع على الوجود وضاءة الحسن ، وعلى الحياة رونق السعادة »

وفى المقالة الثالثة يتحدث الأستاذ عن العيد فيقول : « والأعياد الأجنبية التى تشهدها مصر فى ذكرى الميلاد ورأس السنة غاية فى نعيم الروح والجسم ، وآية فى سلامة الذوق والطبع ، وفرصة ترى فيها القاهرة — وهى منفرجة — كيف تفيض الكنائس بالجلال ، وتزخر الفنادق بالجمال ، وتشرق المنازل بالأنس ... الخ »

ألا ترى أن فى ولوع الأستاذ الزيات بالحديث عن الجمال وتحليل مذاهبه وترديد أوصافه ما يهديك إلى سر ذلك الأسلوب الرائق الجميل وتلك الديباجة الموشاة البديعة ؟

ثم ألا ترى فى طريقة أخذه الموضوعات أخذاً منطقياً يشرف به الأسلوب ما يدل على ملكة مطواعة وبديهة مواتية ومقدرة على الترسل فذة عجيبة !

وصل « وحى الرسالة » إلى يدى أمس وكنت قد طالعت فصولاً مما احتوى نشرت قبل فى الرسالة ، وفيه فصول فاتتنى قراءتها ، وإنى لشديد الحرص على ألا تفوتنى ، ولكننى تعجلت إرسال هذه الكلمة إبماء إلى فضل الكاتب وعظيم يده على الأدب العربى فى العصر الحديث . والكتاب بعد جوهرة نفيسة دائعة الإشراق لا تخلق ديباجتها ولا يخبو بريقها؛ فهى ذخر مقتنيها ومتاع روحه

مصطفى الصباغى